الإيسينيون هم مجتمع قمران وكهوف البحر الميت

استقر الأمر حتى الآن وإلى أن تظهر قرائن جديدة تزعزع هذا الرأى على أن طائفة الإيسينيين هم أفراد مجتمع قمران صاحب مخطوطات البحر الميت فى وادى قمران.

والإيسينيون Essenes هم إذن أعضاء طائفة دينية يهودية عامة، أو هم رابطة أخوة أو مجتمع عاشوا فى فلسطين فى النصف الثانى من فترة المعبد الثانى (أى حوالى من القرن الثانى قبل الميلاد وحتى سنة ٧٠م). ويعتقد على وجه الإجمال والعموم أن بداية الإيسينيين كانت فى خلال أو قرب نهاية ثورة المكابيين فى القرن الثانى قبل الميلاد عندما انحطت القسية اليهودية فى عهد الصدوقيين إلى أسوأ درجاتها وخاصة بعد ارتباطها واتحادها الوثيق مع الهلينيين. ولقد تعنقد أفراد الإيسينيين فى مجتمعات شبه ديرية استبعدت منها النساء إلا فى حالات استثنائية، وعاشوا عيشة الزهد والتقشف والالتزام وتشاطروا كل ما يملكونه تشاطرًا عامًا. ومن الناحية الدينية كان هؤلاء الإيسينيون أقرب إلى عقائد الفارسيين منهم إلى عقائد الصدوقيين ولكن كانت لهم عقائدهم الخاصة وطقوسهم وشعائرهم المرعية. وبقدر المستطاع حاول الإيسينيون الذين عاشوا فى عدة مدن يهودية فى فلسطين أن ينسحبوا من مفاسد الحياة اليومية إلى مراكز التطهر الخاصة بهم التى تقترب من الأديرة والتى ركزوا فيها على ممارسات التطهر الشديد مثل التعميد الجمعى والوجبات الجمعية أكثر من التأملات الفلسفية أو الدينية ولقد دعم الإيسينيون ومولوا أنفسهم بواسطة العمل اليدوى فى الزراعة والحرف وليس أبدا عن طريق العمل العسكرى وكانت عائدات العمل اليومى اليدوى لهم تصب فى خزانة عامة ولم يكن عندهم عبيد ولم يكونوا أيضًا من أنصار الرق بل شجبوه وأدانوه. وقد

كرسوا كل حياتهم لدراسة التوراة فى أدق تفاصيلها. ومن أجل هذا الغرض نبذوا الملكية الفردية لأى شيء وآثروا التبتل والعزوبة. وفى أيام السبوت كانوا يصغون لدراسة وقراءة الكتابات المقدسة بالتفاسير المجازية للنص. ومع مرور الوقت تطورت مجتمعات الإيسينيين إلى وحدات أكثر ترابطًا والتصاقًا وأخيرًا فإنهم لكى يعطوا اهتمامًا كليًا أكبر للتوراة انقسموا إلى جماعات مستقلة فى عدد من المناطق ومع قرب نهاية القرن الأول قبل الميلاد كانت الجماعة الرئيسية منهم (نحو ٤٠٠٠ شخص) قد استقرت فى منطقة الشاطئ الشمالى الغربى للبحر الميت ونظمت نفسها كطائفة ديرية حقيقية. ويرى البعض أن جماعة الإيسينيين فى هذه المنطقة المنعزلة لم تكن كبيرة حسبما قال فيلو فالآلاف الأربعة على أيامه لم تكن بالعدد الكبير أبدًا. وكانوا يزيدون عددهم عن طريق استقدام أعضاء جدد وضمهم بعد فترة اختبار على نحو ما أسلفت وقدمت. وعلى الرغم من أن الجماعة كانوا يفضلون حياة الريف والبداوة على حياة المدن، إلا أن نفرًا منهم كان يشارك فى الحياة السياسية فى المدن. ومن المعروف أن الإيسينيين كانوا يشاركون فى الحروب ضد الرومان. وفى أحد وصوفات وتقارير جوزيفوس يذكر لنا أن هيرود الأكبر كان يقدر الإيسينيين ويحترمهم ويعفو عنهم ويصفح عنهم ولم يجبرهم على أن يقسموا قسم الولاء له. ومع ذلك فإنهم فى حروبهم مع الرومان كانوا يعاملون معاملة قاسية ويعذبون ويقدمون للمحاكمة بشتى الطرق "حتى يجدفوا على الله وعلى موسى أو يأكلوا شيئًا من المحرمات" ولكنهم ثبتوا على عقيدتهم وذهبوا مسرورين إلى الموت على أن يتخلوا عن عقيدتهم. وقد كشفت مخطوطات البحر الميت عن معلومات جديدة وممتعة حول طبيعة عقائد الإيسينيين والطوائف التى اعتنقت مذاهبهم.

ولكن ما معنى إيسينيين وما هو أصل هذا لااسم؟ لقد أثار اشتقاق اسم الإيسينيين دائرة واسعة من الآراء، وربما جاء ذلك بسبب تعدد المعانى التى يحتويها هذا اللقظ مما نتج عنه عدد كبير من الكتابات. ولعل المشكلة الأكبر أنه ليس لهذا الاسم أصل فى اللغة العبرية. وحتى الآن لم تقبل نظرية واحدة أو بمعنى آخر ليس هناك إجماع على أن نظرية خلصت إلى معنى (إيسينيين) أو أصل هذه الكلمة، سواء

تلك التى تواترت قبل اكتشاف مخطوطات البحر الميت أو تلك التى تواترت بعد هذا الاكتشاف. ورغم العديد من الجهود العلمية إلا أن اشتقاق كلمة (إيسينيين) ما يزال غير مؤكد كما كان على الدوام. وكما رأينا من قبل فقد أشارت المصادر المعاصرة لهم بالاسم دون تعليق عليه؛ وربما نقحر الأغريق الاسم ودخل أيضًا إلى اللاتينية منقحرا عن اليونانية ثم دخل إلى اللغات الحديثة أيضًا عن طريق النقحرة. وقد استخدم كل من فيلو وجوزيفوس نفس التسمية اليونانية. وقد أكد كل منهما على أن (إيسينيين) هى صفة وليست اسمًا وتدل على نوع القداسة التى تميز هذه الجماعة (الأشخاص المقدسون).. وقد فسر مفكرنا الكبير عباس محمود العقاد الاسم أو الصفة على أنه (الآسيون أى المعالجون النطاسيون) وعلى الرغم من أن كلا من فيلو وجوزيفوس يربطان الإيسينيين بالقداسة إلا أنهما من سياق حديثهما مقتنعان بأنها صفة وليست إسمًا؛ وهما يترددان حتى فى هذه الصفة وقد أورداها على استحياء. وربما يكون هذا الاسم قد بنى على جذور عبرية أو آرامية. وعندما نبحث فى قاموس أكسفورد للدين اليهودى "سوف نجد المقابل العبرى وأعتقد أنه هو الآخر منقحر وليس أصيلاً فى اللغة العبرية (إيسيم). وقد وضعت مجموعة من الافتراضات لاستبعاد الأصول السامية التى قد يكون المصطلح قد تحدر عنها.

ويتفق جيزا فيرميز وأستاذنا العقاد على أن معنى إيسينيين هو (المعالجون) الأسيون، النطاسيون) ومن ثم يكون الأمر على ما ذهبت إليه من أن المصطلح هو صفة وليس أسمًا. وإذا أخذنا بهذا المعنى فإنه يكون قد اشتق من الفعل الآرامى (يعالج). وإذا تعسفنا فى مص دم هذا المصطلح بهذا المعنى سوف نجد أن الإيسينى هو ذلك الذى يصرف كل همه وعقله فى عبادة الله التى تهدف إلى تحقيق القداسة والحرية الروحية وأنه يمكن تحقيق هذا الهدف فقط من خلال معالجة المرض الناتج عن السلوكيات الآثمة للطبيعة الإنسانية، ومهما يكن من أمر فلنقبل هذا الاسم أو الصفة التى تنقلب إلى اسم على أنه اسم علم يطلق على جماعة أو طائفة دينية يهودية لها تاريخ، وخصائص وعقائد معينة، مهما كان تفسير معنى الاسم أو أصله، لأنه

حتى الآن ليست هناك نظرية واحدة عليها إجماع أو حتى شبه إجماع حول معنى وأصل هذا المصطلح.

وكما أشرت بعامة من قبل هناك قاسم مشترك كبير بين الإيسينين والفارسيين فكلاهما يركز على الحاجة إلى التقوى الشخصية والانفصال التام عن دناسات الحياة اليومية؛ ورغم ذلك فإن الإيسينيين والفارسيين يختلفون فى كثير من تفاصيل العقيدة والممارسة. وعلى سبيل المثال فإن جوزيفوس يقول لنا بان الإيسينيين يعتقدون فى الخلود ويرفضون عقيدة بعث ونشور الجسد. وقد شارك الفارسيون مشاركة نشيطة فى الحياة اليهودية للجماهير واستمروا فى عبادة المعبد رغم أن هذه العبادة كان يحكمها ويتحكم فيها الصدوقيون. ولكن الإيسينيين على الجانب الآخر شكلوا طائفة انعزالية اعتزلت الناس فى الأعم الأغلب. ويقول بعض الثقاة أن السبب فى ذلك أن الإيسينيين اعتبروا أنفسهم وحدهم إسرائيل الحقيقية ونظروا إلى ممارسة الطقوس والشعائر فى المدن والمعابد على أنها فاسدة ومن هنا رفضوا المشاركة وهربوا إلى البرية فى صحراء يهوذا للبحث عن الله هناك.

ولقد وصم باحث مثل ك. كوهلر اليهودى الإيسينيين على أنهم "فرع من الفارسيين الذين أخذوا أنفسهم بأكثر القواعد الليفية صرامة فى التطهر والنقاء، والذين صبوا إلى أعلى درجات القداسة. وكوهلر يؤكد على أن الإيسينيين كانوا أساسًا يهودا فى جذورهم ولكنهم انتموا بعد ذلك إلى الفارسية؛ ومن هنا فإنهم على إطلاقهم لا يمثلون فئة متميزة محددة يمكن فصلها وعزلها عن جموع اليهود العامة ولا يمكننا القول أبدًا بأن الإيسينيين فى أى وقت من الأوقات قد تخلوا أو تنازلوا عن يهوديتهم الرسمية.

أما فيما يتعلق بعقائد وشعائر الإيسينيين فإن إجماع الباحثين على أنهم عاشوا أولاً فى مجتمعات أو جماعات صغيرة من الرجال بهدف دراسة وتدبر التوراة وقد أدى هذا بالضرورة إلى إقامة شعائر قوية وطقوس مرعية وكانوا يلتزمون بالسبوت إلتزاما صارمًا، كما التزموا بشريعة الليفيين الخاصة بالقداسة إلى أبعد حد وكان الإيسينيون يجتمعون عند الفجر لتأدية الصلاة الجماعية التقليدية ثم ينصرفون

بعدها إلى أعمالهم اليدوية الزراعية والحرفية لمدة خمس ساعات (١١ صباحا)، وبعدها يجتمعون ويتدثرون فى عباءات بيضاء من كتان أو تيل ثم يغتسلون بماء بارد ثم يتناولون وجبة منتصف النهار الجماعية (الغداء) مع دعاء القسيس قبل وبعد الأكل فإذا ما أنتهى الطعام انصرفوا إلى إعمالهم مرة ثانية حتى المساء وبعدها يتناولون طعام العشاء معًا. وتحكى لنا المصادر الثقاة عن الصمت المذهل الذى يلزمونه أثناء تناول الطعام. لقد عاش الإيسينيون حياة بسيطة مكرسين جل وقتهم للصلاة ودراسة وتدبر الكتابات المقدسة، وإلى جانب هذا كان كل واحد منهم مطالبًا بأداء عمل يدوى على ما أسلفت؛ وكان هذا العمل إما الفلاحة وإما الصناعة الحرفية.

كان الصغير يوقر الكبير ويقدمه عليه وكان هذا الاحترام التلقائى والطبيعى هو البديل للمراتب الرسمية. وكان التقدم فى السن والعلم هما أساس المرتبة أو المكانة فى مجتمع الإيسينيين. وهم فى كل نشاطاتهم يقوم القادة بوضع الإجراءات وتحديد الأشخاص الذين ينفذونها؛ إلا فى أعمال الخير والرحمة فإن كل شخص بمفرده يسارع إليها دون توجيه على نحو ما يحدث فى إغاثة المحتاج وإسعاف المريض ومساعدة المسنين.

ولقد وصف جوزيفوس النظام الصارم الذى يعمل فيه الإيسينيون وحيث العضو الفرد يعيش فى خضوع مستمر لرئيسه "فهم لا يعملون شيئًا إلا طبقًا لتعليمات رؤسائهم. وهناك شيئان فقط يقوم الواحد منهم بأدائهما بمحض إرادته الحرة: أن يعين المحتاجين حين الحاجة وأن يبدى الرحمة والتعاطف. فى هاتين الحالتين يسمح للأفراد بالمبادرة وتقديم المساعدة والرحمة لمن يستحق وعندما يكونون هم فى حاجة إليها وأن يقدموا الطعام للعجزة وغير مسموح لهم أن يقدموا شيئًا لأقاربهم دون موافقة المشرف عليهم.

وكما ألمعت مرارًا فإن الإيسينيين كانوا يكرهون أو بمعنى أدق يرفضون القسم والحلف ولكن إذا حلف الشخص منهم أبر بقسمه وكلمة الشرف هى عهد وميثاق. ويقوم المشرفون على مراقبة السلوك العام لدى الأعضاء ومدى مراعاتهم

لأصول النقاء والطهر المادى والمعنوى، والإيسينى ممنوع عليه أن يأكل من طعام أعده أغراب أو أجانب والأشخاص الذين يتم قطعهم من المجتمع يمكن أن يموتوا جوعًا فى البرية... ويبدو أن الطرد من المجتمع كان نادرًا ومعصية الأوامر نادرة.

ويرى بعض الباحثين خلافًا لما هو معروف عن الإيسينيين أنهم شاركوا فى شعائر المعبد بما فى ذلك أضحيات الحيوانات وقدموا إلى المذبح قربانات من دقيق وزيت فقط. وكانوا يدرسون كتب أسلافهم بينهم ويجيدون بعض الطب ورغم قدرتهم واستطاعتهم فإن الإيسينيين لم يكونوا ليمسحوا أو يدهنوا أجسادهم بالزيت وكانت تلك عادة جرى عليها العرف بين الطوائف الدينية اليهودية وعلى ما حدث بالنسبة لعيسى عليه السلام. لقد نظر الإيسينيون إلى المسح أو الدهان بزيت البركة على أنه ترف لا لزوم له. وكان التجديف فى حق الله زندقة يعاقب مرتكبها بالموت. وكان من يرغب فى الانضمام إلى الجماعة عليه أن ينتظر عامًا حتى يمنح الإشارة والعلامة (الفأس الصغيرة، الحزام، العباءة، البيضاء) ثم يسمح له بعد ذلك أن يتبع الإجراءات الخاصة بهم ويمنح بعض الماء للاغتسال والتطهر للقداسة ولكنه مع ذلك لم يصبح بعد عضوا حتى يشارك فى الوجبات الجماعية، بل يوضع تحت المراقبة لمدة عامين آخرين فإذا أثبت صلاحيته وأنه يستحق سمح له بالإنضمام للجماعة وقبل الانضمام الفعلى تؤخذ عليه أغلظ الأيمان باتباع القواعد ومن بين تلك القواعد ما هو أخلاقى بالدرجة الأولى مثل الاخلاص والولاء للمجتمع ووعد بأن يضع قلبه وراء الكتب وأسماء الملائكة.

وقد خاض جوزيفوس نفسه جانبًا من هذه التجربة حيث دخل فى فترة الاختبار ولكنه لم يكمل الشوط إلى آخره ومن ثم يمكن الثقة فيما يذكره عن الحياة الخارجية والعقائدية لهذه الطائفة؛ وإن كنا لا نعتبره قد ملك زمام المعرفة الداخلية لأسرارهم وحيث الإيسينيون لا يكشفون عنها إلا لمن التحق بطائفتهم. ولقد ذكر لنا جوزيفوس نص القسم الذى يقسمه الداخل حديثا إلى الجماعة وهو طويل نسبيا ننقله هنا بحذافيره:

"أن أكون تقيا لله، وأن أمارس العدل مع الرجال، وألا أوذى أحدًا أبـدًا، سـواء بموافقته أو رغمًا عنه، وأن أكره دائمًا الوغد وأن أقف دائمًا بجانب الحق، وأن أكـون وفيًا مخلصًا لكل البشر وأن أكون صادقا مع من هم فى الـسلطة، وأن اسـتمد العـزم كل العزم من الله. وعندما أكون ذا سلطة لا أفرض آرائى الشخصية أو نفوذى عـلى أحد، أو أحصل لنفسى على لباس أو رفاهيـة خاصـة؛ وأن أحـب الـصدق والحـق وأكره الغش والزيف؛ وأن أحفـظ يـدى نقيتـين مـن كـل سرقـة، ونفـسى مـن أى مكسب حرام. وألا أفشى سر أحد من الإخوان وألا أخون أى أحد منهم أبدًا حتى ولو كلفنى ذلك حياتى وأن أتبع التقاليـد التـى تلقيتهـا بنفـسى. وألا أكـون قـاطع طريق، وأن أحافظ على الكتب المقدسـة وأن أصـون بـاهتمام أسـماء الملائكـة التـى تعلمتها".

وطبقًا لما ذكره جوزيفوس فإن الإيسينيين كانوا يؤمنون بالقضاء والقدر ويعزون كل شيء إلى القدر وكانت لدى بعضهم القدرة على التنبؤ ربما عـن طريـق الدراسـة الواعية للكتب المقدسة والاطلاع عـلى أقـوال الأنبيـاء وتعمـق الـشئون المقدسـة. وكانوا يؤمنون بخلود النفس (الروح) وليس البدن الذى حسب اعتقادهم ستكون النفس سعيدة بالتخلص منه. ويؤكد جوزيفوس على معتقدات الإيسينيين ويقرر أن الرواقيين والبيتاغوريين قد اقتبسوها. ويرى جوزيفـوس أن الإيـسينيين هـم أقـدم طوائف الزهد والتنسك وأن عقائدهم خرجت من مصر وانتشرت فى العالم. وربـما من هذه العبارة يرى بعض البـاحثين إن الإيـسينيين كـانوا واقعـين تحـت تـأثيرات أجنبيـة. وهـم يـشيرون بـصفة خاصـة إلى أن هـؤلاء الإيـسينيين كـانوا يتعبـدون ووجوههم صوب الشمس وليس صوب المعبد. ويرى البعض أن عقيدة الإيسينيين فى الخلود قد أخذوها عن المصريين القدماء وليس عـن الإغريـق أو الإيـرانيين كـما ذهب البعض، وإن كانت اليهودية التى كانوا عليها كدين سـماوى تؤكـد عـلى هـذا الخلود والبعث، كما نجد عقيدة الخلود موجودة بين الطوائف اليهودية الأخرى مثل الفارسيين.

ومما يؤكد على أن الإيسينيين صفة للطائفة وليس أسـما لهـا أنـه لا توجـد إشـارة واحدة إليهم فى (العهد الجديد) رغم أن طوائف أخرى قد ورد ذكرهـا هنـاك مثـل

الفارسيين والصدوقيين والزيلوت. ويذكر بعض الباحثين أنه ربما كان يوحنا المعمدان متأثرًا بالإيسينية وحيث عاش الرجل وقدم عظاته وعمد بماء نهر الأردن على بعد كيلو مترات قليلة من مقر مجتمع الإيسينيين بل أكثر من هذا يرون أن الكنسية الرسولية ربما تكون قد تأثرت بعقائد الإيسينيين بل أن المسيحية كلها كدين ربما تكون قد تشبعت بروح الإيسينية ذاتها. ولعله من المفيد لدارس العهد الجديد والتاريخ الدينى أن يعلم بوجود مجتمع ديرى قبل المسيحية فى قلب الديانة اليهودية؛ وعلى الرغم من أن الإغريق الذين تبعوا الاسكندر الأكبر وصفوا وجود طوائف زهد وتنسك فى الهند، إلا أن طائفة الإيسينيين كانت أول شكل منظم من أشكال الحياة الديرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط القديم.

إن من يتعمق السمات العامة للإيسينيين سوف يفاجأ بوجود شرائح مختلفة منهم، وهى وإن اتفقت فى الخطوط العامة للعقيدة إلا أن هناك بالضرورة اختلافات جوهرية بينها فى بعض الأحيان فالأصل فى الإيسينى أنه يتبتل ولا يتزوج بيد أن جوزيفوس يتحدث عن شريحة من الإيسينيين أعضاؤها لا يتبتلون وإنما يمارسون الجنس قبل الزواج فإن أنجبت المرأة تزوجها الرجل ثم يتركها بعد ذلك. ومن جهة ثانية تحدث بلينى الأكبر كما أشرت عن أن الإيسينى يتجنب الزواج ويتجنب النساء عمومًا. وهناك شريحة أخرى من الإيسينيين لها طقوسها الخاصة وقد أشرت إليهم من قبل وسوف أفرد لهم فيما بعد حديثًا هم (النطاسيون)، ومجتمع قمران مجتمع مخطوطات البحر الميت هم أيضًا طائفة أو شريحة من الإيسينيين. هذا كله أمر طبيعى ووارد أن يكون هناك إتفاق فى الخطوط العريضة أو فيما نقول فى الأصول وأن تكون هناك اختلافات فى التفاصيل أو فيما نقول فى الفروع.

وهناك إجماع من جانب الباحثين الثقاة على أن الإيسينيين لم ينسلخوا تمامًا عن اليهودية الرسمية كطائفة مستقلة، فالإيسينيون هم جزء متميز داخل فئة الفارسيين وأكثر من هذا يمكننا القول بأنه كان هناك من بين الفارسيين أنفسهم أشخاص عاشوا فرادى أو جماعات عيشة الإيسينيين. هؤلاء الرجال لم يكونوا منعزلين عن

العالم ولا كانوا قادة حملوا الدين فى الحياة العامة. مناحم الإيسينى تنبأ بصعود هيرود إلى السلطة، بينما جون الإيسينى كان جنرالا فى الحرب ضد الرومان. وقد أشرت لماما من قبل إلى أن بعض الباحثين يعتبرون الإيسينيين فرعا من الفارسيين، وهناك من يعتبر أن الإيسينيين والفارسيين قد انبثقا من طائفة الحاسديين الموجودة قبل المكابيين. إنه فقط عن طريق الجمع الدقيق للحالات الفردية من القداسة غير العادية فى اليهودية يمكن تمييز طائفة الإيسينيين. ومن الجدير بالذكر أن هناك تأكيد على أن العقائد الإيسينية تبعد كثيرا عن مسار اليهودية التقليدية الراسخة. وربما كان التقشف والزهد هو الاستثناء وهو الآخر غير معروف فى التلمود. وقد ورد الزهد والتنسك الفردى فى أعمال الربابنة.

لقد عاش كل فرد حياة ديرية بمفرده فى البداية ثم كونوا بعد ذلك مجتمعًا ديريا متكاملاً يديره ويحكمه رؤساء ومشرفون يعملون طبقًا لقواعد وقوانين تقليدية موروثة ولديهم إجراءات وطقوس معينة يزيدون بها أعدادهم عن طريق الأعضاء الجدد. ولقد حدثنا الثقاة من الإغريق عن طوائف دينية منظمة، بينما حدثتنا كتابات الربابنة عن أفراد متنسكين وجماعات غير رسمية تفتقر إلى النظام والديمومة على العكس تماما مما أوردته المصادر الإغريقية، وربما كان كل منهم على حق لأن الإغريق كانوا يصفون طوائف قائمة بالفعل والمصادر الربابينية تتحدث عن أفراد ومن ثم فقد سار كل فى إتجاه معاكس.

ولقد ألمحت من قبل فى إشارة سريعة إلى جماعة النطاسيين التى يرى البعض أنها فرع أو فئة من الإيسينيين، وهم أعضاء طائفة قديمة من الزهاد المتنسكين اليهود يشبهون الإيسينيين فى الأعم الإغلب ولكنهم عاشوا على شواطئ بحيرة كنج مريوط بالقرب من الاسكندرية فى مصر خلال القرن الأول الميلادى وكانت طريقة حياتهم الدينية تشبه إلى حد بعيد حياة الإيسينيين إلا أنهم بالغوا كثيرا فى التأمل والانقطاع الفردى للعبادة والمناجاة. وربما كان المصدر الأصلى الوحيد الذى وصف هذا المجتمع بالتفصيل هو ذلك الكتيب الذى خلفه لنا الفيلسوف اليهودى السكندرى سالف الذكر (فيلو) (٣٠ق.م – ٤٥م) بعنوان (حياة التأمل). وإن لم يتعرض فيه لجذورهم ومصيرهم.

وقد وصفت هذه الجماعةبالنظام الصارم غير العادى وأسلوب الحياة الفريد. إلا ان هذه الجماعة على خلاف الإيسينيين كانت تضم الرجال والنساء. وطبقًا لما قال به فيلو كانت هذه الجماعة تكرس وقتها للتأمل والتفكر؛ وكانت صلاتهم مرتين فقط فى اليوم: عند الفجر وعند المساء. وأما الفترة بين الصباح الباكر والمساء فكانت تقضى كلها فى ممارسات روحية، فهم يقرأون الكتابات المقدسة ويتدبرونها وينشدون الحكمة من فلسفة آبائهم السابقين ويأخذونها على سبيل المجاز وحيث اعتبروا النص اللفظى مجرد رموز تخفى طبيعة معينة يمكن الكشف عنها بدراسة المعانى الكامنة وراءها. وعندما يرغب شخص ما فى الالتحاق بهذه الجماعة فإنه يبدأ على الفور فى تسليم ثروته وممتلكاته إلى ورثته على العكس مما كان يحدث لدى الإيسينيين حيث يقتسم ثروته مع المجموع. وفى حدود معلوماتنا كانت الصلاة والتأمل وقراءة الكتب المقدسة ودراستها هى الشغل الشاغل الوحيد لهذه الجماعة.

ويحدثنا فيلو عن الحياة اليومية لهذه الطائفة فيقول بأن أعضاء هذه الجماعة عاشوا فى بيوت منفصلة ومتباعدة ولكنها فى نفس الوقت كانت قريبة بما يسمح بالحماية المتبادلة فى حال الخطر والطوارئ ولكنها أيضًا ليست متلاصقة أو متقاربة جدًا بحيث تحرم الأعضاء من الخلوة والعزلة التى ينشدونها للتأمل والتفكر. وفى كل بيت توجد حجرة أو مصلى مخصصة للصلاة والدراسة والقراءة. وفى داخل هذه المصلى ينقطع الأعضاء لأسرار الحياة المقدسة. والغريب أن مسائل الأكل والشرب كانت تؤجل جميعها لليل فليس هناك فى المصلى أكل أو شرب أو أى شيء يلبى احتياجات الجسد؛ لا شيء سوى كتب الشريعة وأسفار الأنبياء والمزامير وأى شيء آخر ينمى المعرفة ويزيد التقوى؛ وإلى جانب العهد القديم كانت لدى (النطاسيين) كتب من تأليف مؤسسى الطائفة على شاكلة مفسرى الكتابات المقدسة. ويشير فيلو إلى وضع (مزامير جديدة) موجهة إلى الله بأوزان مختلفة وتراتيل متنوعة.

وكان النطاسى يقضى ستة أيام أسبوعيًا داخل الخلوة يبحث عن الحكمة ولا يخرج أبدًا خارج منزله وبعض هؤلاء المتنسكين لم يكن ليتناول الطعام إلا كل يومين بل إن بعضهم نجح فى أن يأكل مرة واحدة فى الأسبوع. وفى أيام السبوت كان الرجال والنساء يجتمعون فى قاعة الاجتماعات العامة التى تقسم إلى قسمين قسم

للنساء وأخر للرجال، وذلك لأن النساء كن جزء أساسيًا من هذا المجتمع وكن يحضرن بنفس حماس وجدية الرجال. وكان الحائط الفاصل بين النساء والرجال يرتفع إلى نحو ثلاثة أو أربعة أذرع وفوقه فراغ إلى السقف، وهكذا يتم الحفاظ على خصوصية النساء وفى نفس الوقت يمكنهم متابعة المتحدث سماعًا. والكل ينصت لخطبة الأكبر والأكثر حنكة وخبرة بالعقيدة. وبعد غذاء النفس تبدأ تغذية البدن وإن كان الطعام لا يزيد على خبز خشن مع غموس من ملح وشيء من الزوفا (أشنان داود) وشرابهم من ماء الينبوع.

وكان هناك أيضًا اجتماع كل عام كل خمسين يومًا أو كل سبعة أسابيع. وكانت الطائفة تمجد الرقم ٧ ورباعياها ولكن أكثر الأرقام قداسة هو رقم ٥٠ ولذلك فإنهم عشية اليوم الخمسين يقيمون احتفالاً دينيًا يسمى (احتفالية طوال الليل) حيث يجتمعون معًا مرتدين ملابس بيضاء، والسرور يعلو وجوههم وإن كانوا فى منتهى الجدية. ويبدأون فى الانتظام فى صفوف متراصة وأيديهم وعيونهم تمتد إلى السماء؛ وهم فى هذه الحالة من الاصطفاف والتضرع، يبتهلون إلى الله أن يقبل صلاتهم. وبعد هذه الصلوات يجلس الأعضاء على المقاعد طبقًا للترتيب الذى وضعته الجماعة. وهذا الحفل تشارك فيه المرأة أيضًا. وكان النظام يقضى أيضًا بأن يجلس الرجال على الجانب الأيمن والنساء على الجانب الأيسر. ولم يكن لدى هذه الطائفة — مثل الإيسينيين - عبيد يخدمونهم لأنهم رأوا فى تملك العبيد أمرًا إدًا ضد الطبيعة كلية لأن الطبيعة تقضى بأن يكون كل الناس أحرارًا. أما المضيفون فى الحفل فهم الأعضاء الأصغر سنًا يختارون بعناية لصفاتهم الخاصة. وفى هذه الاحتفالية الخمسينية (التى تتم كل خمسين يومًا) لا يقدم فيها النبيذ، وإنما فقط ماء الينبوع الصافى. كذلك تخلو مائدة الطعام من لحوم الحيوانات؛ والطعام هنا مرة أخرى يتكون من الخبز والملح أو الزوفا (أشنان داود) وكذلك للحصول على النكهة اللذيذة المذاق. ويتخلى الأعضاء عن النبيذ واللحم لأن النبيذ يعمل كالمخدر ويفرز الغباوة والحمق، بينما اللحم يثير فى الإنسان نهم العواطف الحيوانية.

وبعد أن يجلس الجميع وينصتون يستمعون إلى الرئيس الذى يناقش معهم قضية فلسفية برزت فى الكتابات المقدسة أو يحل مشكلة يطرحها أحد الأعضاء، ثم يأخذ

الرئيس فى إلقاء الدرس ويعمقه فى أذهان الحضور عن طريق التكرار وهكذا يطبع أفكاره فى نفوس الحاضرين وهو لا يسعى إلى كسب احترام وتقدير الحاضرين بافتعال خطبة حماسية، ولكنه يسعى إلى الحصول على التبصر حول مشكلة معينة عن طريق طرحها على الحاضرين وها هو قد حصل عليه. وينتهى الطرح بغناء مزمور أو ترنيمة معينة تحتوى على إبتهالات إلى الله وتبدأ الأنشودة بالرئيس نفسه وبعده يأخذ كل دوره فى الإنشاد والباقون يستمعون فى صمت إلا إذا جاء دورهم فى الإنشاد، إنشاد المقطع الأخير فى المزمور وحيث يرفع الكل رجالاً ونساء أصواتهم بترديد الإنشاد؛ وبعد ذلك تأتى وجبة الطعام البسيطة على نحو ما سبق. وبعد العشاء يعقدون (عشية العهد المقدسة) حيث يحتفلون بالغناء التجاوبى والمشترك الترانيم تقديم الشكر والرقص الكورالى تقليدًا لموسى ومريم عند البحر الأحمر. وقد أشار فيلو الذى يصف هذه الطائفة بحب شديد إلى أن جوقة المنشدين الخاصة بطائفة النطاسيين تتناغم "النغمة الموسيقية تتجاوب مع النغمة والصوت يتجاوب مع الصوت، الصوت الخفيض للنساء يتناغم مع الصوت الجهير للرجال مما يخلق فى حقيقة الأمر كونشرتو موسيقى متناغم بمعنى الكلمة. ويستمرون هكذا حتى الفجر وعند شروق الشمس يقفون متجهين ناحية الشرق وأيديهم ممدودة إلى السماء ضارعين سائلين الله أيامًا مشرقه مضيئة ومعرفة بالحق وأن يضيء نور الحقيقة عقولهم بالتفكير السليم المستنير. وبعد الصلاة ينصرفون كل إلى مصلاه للتأمل والدرس. وبسبب تقواهم الشديدة فإن فيلو يشخص النطاسيين بأنهم (أبناء السماء والكون).

ولأن النطاسيين مثل الإيسينيين لم يتركوا آثارا عميقة دائمة فى الحياة اليهودية فإن مجتمعاتهم شبه الديرية ربما كانت النموذج الأول الذى تطور إلى حياة ديرية أكبر فى الكنسية المسيحية: ويفسر بعض الباحثين ذلك بأن تركيز تلك الطوائف اليهودية على الخلاص الفردى والإنسلاخ عن الحياة الوطنية القومية وعن الشريعة الوطنية قد بتر هذه الطوائف من الشعب اليهودى وعندما استقلوا وتميزوا بأنفسهم أدى ذلك إلى امتصاصهم واستيعابهم فى الهيئة المسيحية المعادية للهيئة الوطنية اليهودية.

والسؤال الذى حير الباحثين هل كان (النطاسيون) إيسينيين أم كانوا طائفة مختلفة؟ بعض الباحثين يغالى ويقول بل كانوا طائفة مسيحية بسبب التشابه فى تنسكهم وزهدهم للحياة الديرية المسيحية. بيد أن إجماع الباحثين اليوم أنهم كانوا انبثاقًا أصيلاً من يهودية ما قبل المسيحية وربما من الإيسينية.

وربما كانت أهمية طائفة (النطاسيون) مثل أهمية طائفة الأيسينيين تكمن فى أنها تقدم الدليل القوى على وجود نظام ديرى قبل المسيحية. وقد دعم أكتشاف مخطوطات البحر الميت فى برية يهوذا هذا الرأى إلى حد كبير، رغم عدم وجود أى مفتاح يدل على أصلهم. ولا يقدم لنا وصف (فيلو) المفصل لهم معلومات عن أصلهم ولا عن أشتقاق اسم (النطاسيون) وهل هو أسم علم أم صفة، ووصف فيلو لهم بهذا التفصيل يدل دلالة قاطعة على أنهم كانوا موجودين قبل زمانه بطويل. ولقد دهش يوسبيوس (٢٦٠- ٣٣٩م) من وجوه الشبه الشديدة بين النطاسيين والرهبان المسيحيين على أيامه هو لدرجة اعتقد البعض أنهم مسيحيون تحولوا إلى اليهودية تحت تأثير سانت مارك. وأيا كان الأمر فإن إجماع الباحثين هو أن طائفة النطاسيين هى ضرب من ضروب الإيسينيين تميزوا بحب شديد للتأمل والتفكر والتدبر وقد شاطروا الإيسينيين النظرة الثنائية إلى الجسد والنفس وحب العقيدة السرية الكامنة خلف الكلمة الحرفية للكتابات المقدسة.

وصفوة القول فى العلاقة بين الإيسينيين ومخطوطات البحر الميت أن الباحثين بعد اكتشاف هذه المخطوطات مباشرة بدأوا يدرسون وجوه الاتفاق ووجوه التباين والاختلاف بين الإيسينيين كما وصفهم جوزيفوس وفيلو وبلينى الأكبر وذلك المجتمع الذى توحى به المخطوطات. وقد توصل الباحثون بالفعل إلى أن كلا من طائفة قمران والإيسينيين كانتا من بين الجماعات التى فصلت نفسها عن اليهودية العادية التقليدية التى سادت بين يهود ذلك الزمان بل وحتى عن خدمات وتكريسات المعبد وكل من الجماعتين كانت لها لائحة نظام وقواعد مرعية وكان هناك مشرف عام أو رئيس مسئول عن استتاب النظام وحياة الأعضاء. وفى كلتا الحالتين لم تكن هناك ملكية شخصية بل فقط ممتلكات عامة للجميع. وفى كلتا

الحالتين كان المرشح الجديد لعضوية الجماعة لابد وأن يمر بمرحلة اختبار ولا يشارك فى الوجبات الجماعية إلا بعد تثبيته كعضو فى الجماعة. وفى كلتا الحالتين كان الاغتسال للتطهر شعيرة من شعائر المجتمع.

ولكن على الجانب الآخر كانت هناك فروق واختلافات بين الإيسينيين على نحو ما وصفهم جوزيفوس وفيلو وبلينى الأكبر وبين مجتمع قمران على نحو ما خرجنا به من المخطوطات التى عثر عليها فى كهوف البحر الميت وخاصة فيما يتعلق بالعبادات والطقوس فالإيسينيون رغم أنهم كانوا ينكرون أضحيات الدم ولا يرون تقديم الحيوانات للمعبد؛ إلا أنهم كانوا يرسلون قربانات من بخور وحبوب إلى المعبد، بينما نجد مجتمع قمران كان منفصلا تماما عن قسية أورشليم القدس والمعبد. ولا توحى أوصاف الإيسينيين بأى قدر من سيطرة الكهنة والقساوسة عليهم وعلى حركتهم، على خلاف ما توحى به كتابات قمران بالنسبة لجماعة قمران، وأكثر من هذا ليست هناك أية إشارة إلى وجود قائد للإيسينيين يمكن مقارنته بمعلم الاستقامة فى مجتمع قمران.

ولقد خلص الباحثون رغم ذلك إلى أن مجتمع قمران صاحب المخطوطات هو مجتمع أو طائفة شبه إيسينية. وإن كانت هناك قلة من الباحثين يرون فى طائفة قمران فرعًا من فروع الفارسيين أو الصدوقيين أو الزيلوت بل أيضًا الإبيونيين؛ وطوائف أخرى. ولكن دون قرينة علمية.

والرأى عندى أن جماعة قمران هم الإيسينيون الحقيقيون وإن الفروق التى ظهرت بين ممارسات مجتمع قمران والإيسينيين هى فروق فعل الزمن فقط فلا ينتظر أن يظل المجتمع ساكنا متقولبا سجين إطار لا يحيد عنه طوال ثلاثة قرون عددًا؛ فلا بد للزمن أن يحدث تغييرات ولو طفيفة ولا بد لتغير القيادات أيضًا من أن يحدث تغييرات فى الفكر والممارسات. إذن فحتى هذه اللحظة وحتى يجود الزمان بقرائن جديدة تغير رأينا فإن مجتمع قمران صاحب المخطوطات هم (الإيسينيون).

* * *